الذي يراك حين تقوم

بقلم

أبو بكر الصديق عمر الفاروق القاضي

قدم له

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

راجعه

فضيلة الشيخ الدكتور

ياسر بن حسين برهامي

توزيع



الإسكندرية أبو سليمان ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦



الإسكندرية مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧



حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: الذي يراك حين تقوم

اسم المؤلـــف: أبو بكر الصديق عمر الفاروق القاضي

القطـــــــع: ١٢×١٧ سم

عدد الصفحات: ٦٤ صفحة

سنة الطبــع: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الطبعــــــة: الأولى

رقم الإيداع

٥٤٠١٠ / ٢٠١٥

دار الخلفاء الراشدين

طبــع • نشــر • توزيــع

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر أمام مسجد الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ - المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

مُقَدِّمَة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد...

فإن أعظم ما انشغل به العبد إقامة واجب العبودية وطلب ما يقربه من رضوان الله، لا يتحقق ذلك إلا بعلم نافع وعمل صالح وهذا محض فضل وتوفيق من الله ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [الأنفال:١٧].

وقالوا: إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر أين أقامك. ويظل معنى المراقبة من جملة المعاني الإيمانية الهامة الذي لا تصلح الحياة بدونه ولا يستقيم حال الفرد والمجتمع إلا على أساسه، ومن هنا كان لابد من مجاهدة النفس على التحقق بمعنى المراقبة والاجتهاد في الدعاء للتحلي به والتفكر في الموت والقبور والآخرة وعرض النفس على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ومطالعة تراجم العلماء وسير الصالحين للتخلق بهذا الخلق الفاضل والذي لا يعين عليه إلا الله.

وبحث «الذي يراك حين تقوم» للأخ/ أبي بكر الصديق عمر الفاروق القاضي بحث جيد، نسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

كتبه

سعيد عبد العظيم

الذى يراك حين تقوم

إن الحمد لله، نحمد ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

أما بعد.. فإن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ.

أما بعد...

فإن معرفة الله بأسمائه وصفاته بوابة الولوج عليه تبارك وتعالى ودخول القلب بوابة عبوديته والخضوع والخشوع بين يديه، فمن عرف الله أحبه كما قال ذلك الحسن البصري.. ومن عرف قدره خافه وهابه.. وبذلك يتدرج الإنسان إلى درجة الإحسان فى عبودية ربه وهى كما عَرَّفَها النبي ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللّٰه كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، ولا شك أن هذه الدرجة هي أعلى درجات الدين وقمة منازل العبودية أن يراقب الإنسان ربه فى السر والعلن ويطهر سره وقلبه من الشوائب والشبهات لعلمه بنظر الله إليه كما قيل: «إذا اطلع الخبير على الضمير ولم يجد فيه غير الخبير جعل فيه سراجًا منيرًا».

وكما قيل أيضًا: «أعظم الذنوب علمك بخبث باطنك وعلمك بنظر الله إليك وصبرك على هذا».

هكذا فإذا كان الله دائمًا على بالك وتعلم إنه يراك يسمعك... معك... يسمع سرك ونجواك... في البر يراك... والجو يراك... في السماء والأرض... في السر والعلن والنور والظلمة يجعل الإنسان مصلحا لقلبه وشأنه مع الله وتصلح دنياه وأخراه.

لماذا تلك السطور؟

أصبحنا في زمن يُجَاهر فيه الديانُ تبارك وتعالى بكل أنواع

العصيان وأيضا تنتهك حرماته سرا وجهرا وخفية وعلانية.. فنرى الشباب لا يستطيعون حفظ حرماته في الخلوات أو الجلوات من مشاهدة قنوات وممارسة عادات.

والموظفون يغشون و يرتشون وكأن لا رقيب.. فترى النصب والاحتيال والسرقة في كل التعاملات المادية ما بين تجار وغيرهم إلا ما رحم ربك. وترتب على ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله ما نرى من عقوبات وهزائم أحيطت بها الأمة إحاطة السوار بالمعصم من أمراض قلبية واجتماعية وعلل اقتصادية وخزي في الدنيا والدين وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥].

ثم يتساءل متساءل.. أين نصر الله وتأييده لنا؟ متى نكون أعز أمة؟ ولماذا نحن فى مؤخرة الأمم نعيش على هامش الدنيا؟ لماذا أصبح دم المسلمين أرخص دم على وجه الأرض؟

والإجابة: منا جاء الخلل والمخالفة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ

ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

وهكذا فكان لابد من تلك التذكرة التي أذكر بها نفسي وإخواني بمراقبة الله تبارك وتعالى وكيف نصل إلى ذلك ونستغفر الله من وصف حال ما عشناه وما شممنا له رائحة ولكنَّ وصف الصالحين يحثُّ على اتباعهم والتشبه بهم.. فكلنا ذنوب ونريد أن نتوب إلى الله تبارك وتعالى.

من الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وهذه المراقبة توجه إلى المحاسبة التي بدورها تؤدى إلى التوبة لأن المراقبة تزعج القلب وتبعثه على الندم على التفريط وهو أحد شروط التوبة وقد قال النبي ﷺ: «**الندم توبة**» كما سنرى ذلك من خلال الآيات البينات والأحاديث الشريفة التي تحث على هذا المقام الشريف بالترغيب في عمل الصالحات في الخلوات والترهيب من الخلو بانتهاك حرمات الله ومن باب أولى المجاهرة ونبدأ ذلك من خلال وصف خلوات الذي لا يقدرون الله حق قدره ولا يراعون نظر الله ليتبين المرض.. ثم نشرع في العلاج وبضدها تتميز الأشياء.. والطب هو التشخيص

فينبغي أن نشخص المرض أولاً ثم نوضح الدواء الذي تتداوى به القلوب الأرواح من جراحات مخالفة العليم الخبير ﷻ.

وأمرضني الهوى لهوان حظي ولكن ليس غيرك لي طبيب

ولكن ما هو المرض ؟

يتبين لك ذلك أخي من خلال ذلك الحديث الذي ينزعج له القلب الحي السليم فإن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد...

عن أبي عامر الألهاني رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا**». قَالَ ثَوْبَانُ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا**».

انظر أخي.. إنهم يقومون الليل تلك العبادة العظيمة التي هي شرف المؤمن وتعلم العبد الإخلاص فما لها لم تؤثر في قلوبكم «**وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ**» تدل أنهم لا فرق في الظاهر بينهم وبين من رضي الله عنهم ورضوا عنه من صحابة رسول الله ﷺ...

فما السر في ذلك الجزاء والعقاب الأليم في يوم لا ينفع مال ولا بنون لا ينفع إلا الحسنات والسيئات؟؟ أصبحت الحسنات هباءً تذريه الرياح منثورًا أمام أعينهم بعدما كانت جبالًا.. هم أحوج إليها في ذلك اليوم العظيم المشهود.

فما السر؟

السر أنهم «إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»؛ لأنهم لا يقدرون الله حق قدره إن في قلوبهم خبثًا عظيمًا لم يطهره قيام الليل الذي حظهم منه النصب والتعب.. إنهم يخشون الناس كخشية الله بل أشد خشية يقول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة:٧٨].

وما قدروا الله حق قدره ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨].

لما هان الله في قلوبهم هانت حسناتهم على الله عز وجل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يا صاحب الذنب لا تأمنن من سوء عاقبته ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته وقلة حيائك ممن على اليمين والشمال وأنت على الذنب -أعظم

من الذنب الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدرى ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا أظهرت به- أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظهرت به وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك -وأنت على الذنب ولا يخطر به فؤادك من نظر الله إليك- أعظم من الذنب إذا عملته».

إذًا المرض هو الجهل بالله، وكفى به معصية ولاَّدة لجميع المعاصي فما عُصِى الله إلا بالجهل.

ودع الذين إذا أتوْك تنَسَّكوا وإذا خَلوْا فهم ذِئابٌ حِقافُ

أين الدواء؟

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء:٨٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترهيب والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه

في معاشه ومعاده ويرغب عما يضره فيصير القلب محبًا للرشد مبغضًا للغي.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، فيتضلع القلب، فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فُطِرَ عليْها فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن.

وعـاد الفتى كـالطـفـلِ، ليس بقابل
سوى المحض شيئا واستراحت عواذلُه

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه ويؤيده ويفرحه ويسره وينشطه، ويثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما يقويه وينميه..»[1]. انتهى.

فأنزل الآياتِ على قلبك دواءً يُشف بإذن الله.

اللهم اشفنا لا شفاء إلا شفاؤك.

***

(١) كتاب «طب القلوب» لابن القيم (ص:١٥٨).

مراقبة الذي يراك حين تقوم جل جلاله من كلام الحي القيوم

(١) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء].

قال ابن كثير: «أي هو معتنٍ بك كما قال جل شأنه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعنى يراك حين تقوم إلى الصلاة».

وقال عكرمة: «وقال قتادة: الذي يراك قائمًا وجالسًا وعلى حالاتك، والذي يراك في الصلاة وحدك ويراك في الجمع». اهـ.

«وجه قلبك لمن هو في ملكه وعظمته ومعتنٍ بك ولا تخفى عن سمعه ولا طرفة ولا لحظة من لحظات الزمن».

(٢) قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث أنتم وأين كنتم برًا أو بحرًا في ليلٍ أو نهارٍ في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ويعلم سركم ونجواكم كما قال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود:٥]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠].

فلا إله غيره، ولا رب سواه، وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام لما سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

(٣) قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

يقول سيد قطب في «الظلال»: «شعور مطمئن ومخيف معًا، مؤنس ومرهب معا وكيف بهذا المخلوق البشرى وهو مشغول بشأن من شؤونه يَحسُّ أن الله معه، شاهدٌ أمرَه وحاضرٌ شأنَه، اللهُ بكل عظمته وبكل هيبته وبكل جبروته وبكل قوته، الله خالق هذا الكون وهو عليه هين؟ ومدبر هذا الكون ما جل منه وما هان، الله مع هذا المخلوق البشرى الذرة التائهة فى الفضاء لو لا عناية الله تمسك بها وترعاها.

إنه شعور رهيب ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن... إن هذه الذرة التائهة ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية.. إن الله معها ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ إنه ليس شمول العلم وحده ولكن شمول الرعاية ثم شمول الرقابة.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ويسبح الخيال مع الذرات السابحة في الأرض أو في السماء ومعها علم الله ومع ما هو أصغر من الذرة وما هو أكبر الكل محصور في علم الله...

ويرتعش الوجدان إشفاقًا ورهبة ويخشع القلب إجلالًا وتقوى حتى يطمئنَّ الإيمان من الروعة ويهدهد القلب الراجف بأنس القرب من الله.

(٤) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٢-١٣].

قال في «الظلال»: «والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذي لم يروه، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم في خفية عن الأعين وكلاهما «**معنى كبير وشعور نظيف وإدراك بصير**» يؤهل

لهذا الجزاء العظيم الذي يذكره السياق في إجمال وهو المغفرة والتكفير والأجر الكبير.

ووصل القلب بالله في السر والخفية وبالغيب الذي لا تطلع عليه العيون، هو ميزان الحساسية في القلب البشرى وضمانة الحساسية للضمير. قال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده» -وقد ذكر هذا الأثر ابن كثير أيضًا-: «حدثنا طالوت بن عبد الله حدثنا الحارث بن عبيد عن ثابت عن أنس قال: قالوا: يا رسول الله! إنا نكون عندك على حال، فإذا فارقناك كنا على غيره، قال: «كيف أنتم وربكم؟» قالوا: الله ربنا في السر والعلانية، قال: «ليس ذلكم النفاق»[1]، فالصلة بالله هي الأصل فمتى انعقدت في القلب فهو مؤمن صادق موصول.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٣-١٤]، وهذه الآية السابقة تربط ما قبلها في السياق بما بعدها في تقرير علم الله بالسر والجهر وهو يتحدى البشر وهو الذي خلقهم خلق نفوسهم ويعلم مداخلها ومكامنها التي أودعها إياها.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وأسروا أو

---

(١) رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، ورواه ابن حجر في «مختصر الزاد» ورجاله رجال الصحيح.

اجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواءً، وهو يعلم ما هو أخفى من الجهر والسر ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ التي لم تفارق الصدور حتى.

عليم بها سبحانه -فهو الذي خلقها في الصدور- ألا يعلم من خلق؟ ألا يعلم وهو الذي خلق؟؟ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذى يصل علمه إلى الدقيق الصغير والحق المستور...

إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أو سر أو نية في الضمير، يبدون مضحكين..

فالضمير الذي يخفون فيه نيتهم من خلق الله، وهو يعلم دروبه وخفاياه والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون.. فماذا تخفون؟؟ وأين ستخفون؟؟

(٥) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٨].

إن ابتداء الآية يشير إلى المقتضى الضمني للعبارة «أليس الخالق أعلم بخلقته؟» فصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها والصانع مع صنعته ليس بخالقها لأنه لم ينشئ مادتها ولم يزد على تشكيلها وتركيبها فكيف بالمنشئ الموجد الخالق؟ إن

الإنسان خارج من يد الله أصلا فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدوره ومنشئه وحاله ومصيره.

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر وكل ما فيها من خافية وخافتة معلوم لله تمهيدًا ليوم الحساب الذي ينكره ويجحده!

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ الوريد الذي يجرى فيه دمه وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة والرقابة المباشرة وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لابد أن يرتعش ويحاسب نفسه.

لو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها بل ما جرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال القبول وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة لا يغفل عن المحاسبة.

ولكن القرآن يستطرد في أحكام الرقابة فإذا الإنسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به عن اليمين والشمال، يتلقيان منه كل حركة فور وقوعها ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ رقيب حاضر ونحن لا ندرى كيف يسجلان فماذا عن كيفية هذين الملكين؟ ولا داعي للتخيلات التي لا تقوم على أساس فموقفنا بإزاء هذه الغيبيات أن نتلقاها

كما هي ونؤمن بمدلولها دون البحث في كيفيتها التي لا تفيدنا معرفتها في شيء فضلًا عن أنها غير داخلة في حدود تجاربنا ولا معارفنا البشرية حسبنا أن نعيش في ظل هذه الحقيقة الرهيبة وهى حقيقة ولو لم ندرك كيفيتها وهى كائنة في صورة من الصور ولا مفر من وجودها وقد أنبأنا الله بها لنحسب حسابها لا لننفق الجهد عبثا في معرفة كيفيتها والذين انتفعوا بهذا القرآن وبتوجيهات رسول الله ﷺ الخاصة بحقائق القرآن كان هذا سبيلهم أن يشعروا وأن يعملوا وفق ما شعروا.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا معاوية، حدثنا محمد بن عمرو ابن علقمة الليثى، عن أبيه، عن جد علقمة، عن بلال بن الحارث المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[١].

فكان علقمة يقول: «كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث». اهـ.

(١) رواه بلال بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمنذري في «الترغيب والترهيب» وإسناده حسن.

اذكـر اللهَ ما خلـوْت كثيرا فهو أزكى ما يكتب الملكان
واخشه إن لهوت فهو رقيـب وقريب للقلب والشريان
هذِّب النفس لا تطع ما تمنت وتمسك بشرعـة القـــرآن
لا تقل إن خلوت إني وحيـد فمع الله أنت في كل شـان
إن عين الإله ما غاب عنهـا أيُّ حي فى عالم الأكـوان
ترقب الخلق فى جلال وحكم واقتـداًر ورحـمة وحنان

(٦) قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١].

قال ابن كثير: «أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ وفى الحديث الصحيح: «**اعبد الله كأنك تراه فإنه يراك**»، وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق:١٤]. ألم يعلم هذا العاصي أن الله يراه.

إذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحِي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

يا من تعصى في الخلوات اعلم.. السر عنده علانية، ولا تخفى عليه خافية، يا من دعيت إليه فما أجبت، وأمرت بالترك فما انتهيت.

(٧) قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ

فَتَكُن فِى صَخۡرَةٍ أَوۡ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾. [لقمان:١٦]:

يقول سيد قطب في «الظلال»: «تأتي الفقرة التالية في وصية لقمان لتقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل ولكن هذه الحقيقة لا تُعرضُ هكذا مجردة،إنما تعرض في المجال الكوني الفسيح، وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان، وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف.

وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله وعن قدرة الله سبحانه، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصوِّر، وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء، العميقة الإيقاع ﴿حَبَّةٍ مِّنۡ خَرۡدَلٍ﴾ صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة ﴿فَتَكُن فِى صَخۡرَةٍ﴾ صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يُتوصل إليها ﴿أَوۡ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة ﴿أَوۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ضائعة في ثراها وحصاها فلا تتبين ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ فعلمه يلا حقها، وقدرته لا تُفلتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ تعقيب يناسب المشهد الخفي اللطيف... ويظل الخيال مع تلك الحبة من الخردل في مكامنها تلك العميقة الوسيعة؛ ويتملى

علم الله الذي يتابعها حتى يخشع القلب وينيب إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب وتستقر من وراء ذلك تلك الحقيقة التي يريد القرآن إقرارها في القلب... بهذا الأسلوب العجيب...

***

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ؟؟

كما ظهر لنا من خلال تلك الآيات البينات التي تتلألأ منها الأنوار تفيض على القلب بالنور والشفاء من كل الأدواء تُعرِّفها بربها تبارك وتعالى وتُحببها فيه وهو المحبوب الأول.

إن المراقبة كما لاح لك هي منزلة عذبة شفافة يراقب الإنسان فيها حركاته ونبراته ولحظاته وخطواته يراقب الله متطلعًا إلى السماء معلق بفوق ولا يرتكن إلى الأرضيات ولا تغلبه لأن روحه معلقة بالملأ الأعلى يراقب الملك ولا يشارك ربَّه أحدٌ في قلبه.

* يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفوائد»: «التوحيد ألطف شيء أنزهه وأنظفه وأصفاه، أدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه فهو كأبيض ثوب يكون، ويؤثر فيه أدنى أثر كالمرآة الصافية جدًّا، أدنى شيء يؤثر فيها ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسر عليه قلعه».

* يقول العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن الله تبارك وتعالى؛ ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا ولا

زاجرًا أعظم مما تضمنته الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه رقيب عليهم، ليس بغافل عما يعلمون وضرب العلماء لهذا الوعظ الأكبر والزاجر الأعظمً مثلًا ليصير به كالمحسوس فقالوا: لو فرضنا أن ملكًا من الرجال، سفَّاكًا للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلمًا وسيافه قائمٌ على رأسه والنطع مبسوط للقتل وحول هذا الملك -الذي هذه صفته- جواريه وأزواجه وبناته فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يهم بريبة أو بحرام ببنت من بنات ذلك الملك وأزواجه وهو ينظر إليه عالم بأنه مطلع عليه؟... لا، وكلا.

بل جميع الحاضرين يكونون خائفين وجلةً أبصارهم خاشعةً عيونُهم ساكنةً جوارُحهم خوفًا من بطش ذلك الملك.

ولا شك ولله المثل الأعلى -أن رب السموات والأرض جل وعلا أشدُ علمًا وأعظمُ مراقبةً وأشدُ بطشًا وأعظمُ نكالًا وعقوبةً من ذلك الملك، وحماه في أرضه محارمه». اهـ. «أضواء البيان» بتصرف.

ويقول: «إذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه -جلا وعلا- ليس بغائب عنه، وأنه مطلعٌ على كل ما يقول وما يفعل وما ينوى، خشي الله -جلا وعلا- وأحسن عمله لله تعالى». اهـ.

ولهذا توجب المراقبة المحاسبة ولا تحييان إلا بالمثابرة على ذلك والمجاهدة حتى يُثِمر القلبَ السليم كما يتبين لنا من خلال كلام النبي ﷺ في تلك المنزلة الرقراقة..

❊ ❊ ❊

مراعاة نظر الرقيب

من كلام الحبيب ﷺ

انظر إلى هذه الأحاديث التي تحث على طاعة الله في خلوة لأنه لا باعث لها إلا الإخلاص لله تبارك وتعالى واجتنابِ معصية الله في خلوة أيضًا لأنه لا يكون الناهي عنها إلا مخافته تبارك وتعالى:

١- قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبءٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ**»[١].

هذا العمل السر والخبيئة من العمل الصالح يتميز به المحسن المراقب لربه لا يرجو ثوابا إلا من عند الله تبارك وتعالى ويتحقق الإخلاص وبهذا تسبق إلى الله..

أخلص قلبك لله يكفك العمل اليسير.

ما لي ولسيرك المدلل تمشى رويدًا وتجي في الأول

٢- عن أبي ذر رضي الله عنه أن ﷺ قال: «**ثَلاَثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ، وَثَلاَثَةٌ يَشْنَؤُهُمُ اللهُ**» قُلْتُ: فَمَنْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يُحِبُّ اللهُ؟ قَالَ:

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع» عن الزبير رضي الله عنه.

«الرَّجُلُ يَلْقَى الْعَدُوَّ فِي الْفِئَةِ فَيَنْصِبُ لَهُمْ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ، أَوْ يُفْتَحَ لأَصْحَابِهِ، وَالْقَوْمُ يُسَافِرُونَ فَيَطُولُ سُرَاهُمْ حَتَّى يُحِبُّوا أَنْ يَمَسُّوا الأَرْضَ، فَيَنْزِلُونَ فَيَتَنَحَّى أَحَدُهُمْ، فَيُصَلِّي حَتَّى يُوقِظَهُمْ لِرَحِيلِهِمْ، وَالرَّجُلُ يَكُونُ لَهُ الْجَارُ يُؤْذِيهِ جِوَارُهُ، فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَعْنٌ». قُلْتُ: وَمَنْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَشْنَؤُهُمُ الله؟ قَالَ: «التَّاجِرُ الْحَلاَّفُ»، أَوْ قَالَ: «الْبَائِعُ الْحَلاَّفُ، وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ»[1].

فانظر إلى ذلك الرجل الذي فاز بحب ملك الملوك تبارك وتعالى له وهو من هو في عظمته وملكه وربوبيته وألوهيته وهذا الرجل هو من هو في عبوديته وفقره وذله ولكنه قام في قلبه شيء أحبه الله تبارك وتعالى ألا وهو مراقبته ومراعاة نظره تبارك وتعالى ولو اختفى عن نظر الناس ومراعاة ذلك في الخلوات فهذا شاهد الإخلاص الذي قام في قلبه ومدرسة الإخلاص تكون في قيام الليل حين تكون الراحة في البيات والنوم ولكن عباد الرحمن بياتهم يكون في راحة قلوبهم لا في راحة أجسامهم كما يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٤].

(١) رواه أحمد، وصححه الترمذي، ووافقه الذهبي.

٣– عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ بِصَدَّقة فأَخَفَاها حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»[١].

وقد ارتبط السبعة برابط واحد وهو :

١ – الرغبة في الله والرهبة من الله.

٢ – مراقبة الله والإخفاء عن الناس.

وإن كان بعض الصور ظاهرة إلا أنها مرتبطة بعنصر الإخفاء حتى لتكاد تكون من باب واحد وهو مراقبة الله والخوف منه وإيداع ودائع السر عند الله، لسان حالهم: «ضع كنزك عند من لا يضيعه»[٢].

٤– عن أبي مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «استحيوا من الله حق الحياء»، قالوا: إنا لنستحي

(١) رواه البخاري.

(٢) نقلاً عن كتاب: «في ظلال عرش الرحمن» محمد عطية سالم.

يا رسول الله، قال: «**ليس ذاكم ولكنَّ من استحيا من الله حق الحياء: فليحفظ الرأس، وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**»[1].

قال البيضاوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعنى ليس حق الحياء من الله ما تحسبونه بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عما لا يرضاه الله من فعل وقول». اهـ. نقلًا عن «الفتح الرباني».

ولا يتم ذلك إلا من خلال مراقبته تبارك وتعالى في اطِّلاعه على الإنسان ومراقبة مصيره بفناء الدنيا وبقاء الآخرة لأن من ذكر أن عظامه تصير باليةً وأعضاءه متمزقة هان عليه ما فاته من اللذات العاجلة وأهمه ما يلزمه من طلب الآجلة وعمل على إجلال الله تبارك وتعالى وتعظيمه.

والحياء كما يقول ابن القيم: «أن تنفتح في القلب عين يرى بها أن الله يرى سره ونجواه وأنه قائم بين يدي الله».

٥- قال النبي ﷺ: «**ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان: من عبد الله وحده وأنه لا إلٰه ألا الله، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسُه رافدةً -الإعانة من نفسه- عليه كل عام ولا يعطى الهرمه**

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

ولا الدرنة -الجرباء- ولا المريضة ولا الشرط -قال أبو عبيدة: صغار المال وشراره- اللئيمة -البخيلة باللبن- ولكن من وسط أموالكم؛ فإن الله لم يسألكم خيرها ولم يأمركم بشرها» وزاد البيهقى: «**وزكّى عبدٌ نفسه**» فقال رجل: ما تزكية المرء نفسه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**يعلم أن الله معه حيثما كان**»[١].

فقال الإمام الذهلي: يريد أن الله علمه محيط بكل مكان والله على العرش. اهـ.

وبهذا يعلم من أين نؤتى وكيف نقع في المعاصي أننا لا نزكي أنفسنا التي علق الله عليها الفلاح قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤]، وما زكاة النفس؟ أن نتعلم أسماءه وصفاته تبارك وتعالى التي تعرفنا بعظمته وهيبته وتحجمنا عن العاصى والمخالفات...

عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ما كرهت أن يراه الناس؛ فلا تفعله إذا خلوت»[٢] هكذا لا تستحي من الناس وأنت ولا تستحي من الله فهو أولى بالحياء.. فلا تخشاهم واخشَ الله فهو أحق أن تخشاه.

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة».

(٢) رواه ابن رجب في «روضة العقلاء»، وحسنه الألباني.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى حديث جبريل عليه السلام يقول النبي ﷺ في تعريف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

يقول الشيخ ابن عثيمين: «وكون الإنسان يعبد الله كأنه يراه في ذلك دليل على الإخلاص لله عز وجل، وعلى إتقان العمل في متابعة الرسول ﷺ؛ لأن كل من عبد الله على الوصف فلابد أن يقع في قلبه من محبة الله وتعظيمه ما يحمله على إتقان العمل وإحكام العمل؛ فإن لم تعبد الله على هذا الوصف «كأنك تراه» فاعبده على سبيل المراقبة والخوف «فإنه يراك» ومعلوم أن عبادة الله على وجه الرغبة أكمل من عبادته على وجه الرهبة فهنا مرتبتان:

المرتبة الأولى: أن تعبد الله كأنك تراه.

والثانية: تعبده كأنك تعلم أنه يراك، هذه مرتبة الرهب وكلتاهما مرتبتان عظيمتان لكن الأولى أكمل وأفضل». اهـ.

ونريد أن نشير إلى شمول وعموم معنى لفظ «أن تعبد» لجميع أفعال وأقوال العبد الظاهرة والباطنة التي يحبها الله ويرضاها فيستحضر شهود الملك تبارك وتعالى عليه أثناء

صلاته وصيامه وزكاته وذكره ومناجاته وأعماله القلبية ومباحاته التي يحتسبها عند الله مما يصيغ العبد صياغة ربانية كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

٨- عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: أحفظ الله يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»(١).

وهذا يشمل حفظ حدود الله وأوامره بتطبيقها ونواهيه باجتنابها ومراقبته في كل حركة وسكنة وقول وفعل وميزانه بميزان الشرع فيحفظ سمعه فلا يسمع إلا ما يرضي الله ويحفظ بصره فلا يشاهد إلا ما يرضيه وإن وقع بصره على محرم فجأة صرف بصره ويحفظ جوارحه فلا يستخدمها إلا في مراضيه فلا تشهد عليه بالعصيان يوم القيامة قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة».

يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٠-٢٣]؛ فاحفظ جوارحك وجلدك عن مقارفة الذنوب لكي لا تشهد عليك في ذلك اليوم المشهود وملاك كل ذلك كله أن تحفظ قلبك فلا تملأه إلا بما يحب تبارك وتعالى.

فهذا الحب سوف يصبغ حياتك صبغة العبودية والربانية وربك يقول: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦]، وهنالك سوف يغمرك توفيق الله وتشعر بحفظه لك ورعايته وهو مصداق قوله ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**».

* * *

كلام أطباء القلوب في مراقبة علام الغيوب

١- قال الجنيد: «من تحقق في المراقبة خاف على فوات حظه من ربه لا غير».

لله ما أحلاها من كلمة! تدل على معرفة الله حق المعرفة فمن غيره تبارك وتعالى يستحق أن تبذل في سبيله الأوقات والجهود وتوجه لحبه القلوب والمشاعر تبارك وتعالى..

إليك وإلا لا تشد الركائب ... ومنك وإلا فالمؤمل خائب

وفيك وإلا فالغرام مضيع ... وعنك وإلا فالمحدث كاذب

٢- قال ذو النون: «علامة المراقبة: إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله». قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

٣- قيل: من راقب الله في خواطره عصمه الله في حركات جوارحه.

٤- وقيل أيضًا: المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة.

٥- وسئل ابن عطاء: ما أفضل الطاعات؟ فقال: «مراقبة الحق على دوام الأوقات».

٦- وقال إبراهيم الخواص: «المراقبة خلوص السر والعلانية لله تبارك وتعالى».

٧- قال الحسن بن علي الدامعاني: «عليكم بحفظ السرائر فإنه مطلع على الضمائر».

٨- قال مجاهد فى قوله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾: هو الرجل يخلو بمعصية الله فيذكر مقام الله -أى: قيامه عليه وشهوده وبصره وسمعه فى الدنيا على أحد التفسيرين والتفسير الآخر هو: مقام العبد بين يديه يوم القيامة فالأول في الدنيا والثاني في الآخرة- فيدعها خوفًا من الله».

٩- قال ابن الجوزى: «والرجل -والله- من إذا خلا بما يحب من المحرم، وقدر عليه، وتقلقل عطشا إليه، نظر إلى نظر الحق إليه، فاستحيا من إجالة همه فيما يكرهه فذهب العطش».

انظر... هذا الرجل فليس كل ذكر رجلًا...

١٠- قال أبو عبد الله الأنطاكي: «أفضل الأعمال: ترك المعاصي الباطنة» فقيل له: ولم ذلك؟ قال: «لأن الباطنة إذا تركت كان صاحبها للمعاصي الظاهرة أترك»، ولأنها أثقل في الميزان من معاصي الجوارح كما بينا في السر وراء أمراض المعاصي والمخالفات.

١١- قال بعض أهل العلم: «من كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، ومن تساوت سريرته وعلانيته فذلك العدل، ومن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور».

١٢- قال ابن المبارك لرجل: «راقب الله تعالى» فسأله عن تفسيره فقال: «كن أبدًا كأنك ترى الله عز وجل».

١٣- وقال سفيان الثوري: «عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الرفاء».

أغيب وذو اللطائف لا يغيب وأرجوه رجاء لا يخيب

ومن لي غير باب الله باب ولا مولى سواه ولا حبيب

كريم منعم بر لطيف جميل الستر للداعي مجيب

حليم لا يعاجل بالخطايا رحيم غيث رحمته يصوب

١٤- وعن حاتم الأصم: «لو أن صاحب خير جلس إليك، لكنت تتحرز منه، وكلامك يعرض على الله فلا تحترز».

١٥- قال الربيع بن خيثم: «إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك وإذا هممت فاذكر علمه بك وإذا نظرت فاذكر نظره إليك وإذا تفكرت فاذكر اطّلاعه عليك فإنه يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

١٦- وعن زيد بن على قال: «إني لأستحيي من عظمته أن أفضي إليه بشيءٍ أستخفيه من غيره». اهـ. هذا هو حق الحياء.

١٧- وقال أبو عثمان الزاهد: «سرائرَكم سرائرَكم، فإن المطلع على السرائر يراقبكم».

١٨- وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: «بعلمك أن نظر الناظر إليك -الله تبارك وتعالى- أسبق من نظرك إلى المنظور إليه».

١٩- وقال حميد الطويل لسليمان بن على: عظني. فقال: «لئن كنت إذا عصيت الله خاليًا ظننت أنه يراك فأنت على أمر عظيم، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت».

فالعاصي يتقلب بين أمرين أحلاهما مر، ولذلك اشترط ابن القيم في شرائط التوبة تجديد إيمان العبد بنظر الله إليه واستدل بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنه ما اجترأ على المعصية إلا لنقص إيمانه وقلة شهوده لنظر الله.

٢٠- وعن محمد بن واسع قال: «كان لقمان عليه السلام يقول لابنه: «يا بني! اتق الله ولا تر الناس أنك تخشى الله عز وجل ليكرموك بذلك وقلبك فاجر». وهذا هو خشوع النفاق فترى البدن خاشع والقلب ليس بخاشع، وهو الذي تعوذ منه حذيفة رضي الله عنه ..

فراقب ربك فإن الناس لن يضروك ولن ينفعوك.

٢١- وعن ابن الأعرابي قال: «أخسر الخاسرين من أبدى الناس صالح أعماله وبارز القبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد».

٢٢- وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أشد الأعمال ثلاثة: الجود في القلة والورع في خلوة وكلمة حق عند من يرجى ويخاف».

٢٣- قال فرقد: «إن المنافق ينظر: فإذا لم ير أحد دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى».

٢٤- وعن يحيى بن معاذ الرازي قال: «من خان الله فى السر هتك ستره في العلانية».

٢٥- وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

وإذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب ... وأن غـدًا للناظرين قريب

٢٦- قال أبو مسلم الخولاني: «من نعمة الله على أنني منذ ثلاثين سنة ما فعلت شيئًا يُستحيا منه إلا قربي من أهلي».

٢٧- وعن محمد بن سيرين أنه رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ما غشيت امرأة قط لا في يقظة ولا في نوم غير أم عبد الله -زوجته- وإني لأرى في

المنام المرأة فأعلم أنها لا تحل لي فأصرف بصري». وصدق من قال: ليت عقلي في اليقظة كعقل ابن سيرين في المنام.

فسرى كإعلاني وتلك خليقتي
وظلمة ليلى مثل ضوء نهاري

٢٨- قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراقبة: دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ظاهره وباطنه. واستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس».

وقال: «المراقبة: هي التعبد بأسمائه الرقيب الحفيظ العليم السميع البصير فمن عمل بهذه الأسماء وتعبد بمقتضاها حققت له المراقبة، والله أعلم».

أ- الرقيب:

قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [المائدة:١١٧].

وقال جل وعلا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:٥٢].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو الرقيب على الخواطر واللواحظ
كيف بالأفعال والأركان

وقال السعدي: «الرقيب: المطلع على أكنة الصدور القائم على كل نفس بما كسبت والذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير».

ب- الحفيظ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود:٥٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:٢١].

وقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:٦].

يقول ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وهو الحفيظ عليهم وهو الكفيل يحفظهم من كل أمر عان

وقال السعدي: «الحفيظ: الذي حفظ ما خلقه وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنوب والهلكات ولطف بهم في الحركات والسكنات وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها».

ج- العليم:

ورد في القرآن مائة وسبعة وخمسين مرة، قال تعالى:

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة:٣٢].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل:٢٨].

﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الأنبياء:٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو العليم أحاط علما بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وهو بكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذلك يعلم ما يكون عدم وما ... قد كان والموجود في ذا الآن
وكذلك أمر لم يكن لو كان كيف ... يكون ذاك الأمر ذا إمكان

وقال السعدي: «وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والأسرار والإعلان وبالواجبات والمستحيلات والممكنات وبالعالم السفلي والعلوي وبالماضي والحاضر والمستقبل فلا يخفى عليه شيء من الأشياء».

د- السميع:

ورد فى كتاب العزيز خمسًا وأربعين مرة قال تبارك وتعالى:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧].

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان:٢٨]، ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ:٥٠].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو السميع يرى ويسمع كل ما	فأي الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت من سمع حاضر	فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات	لا يخفى عليه بعيدها والداني

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ يقول جل ثناؤه واصفًا نفسه بما هو به: السميع لما تنطق به خلائقه من قول».

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «الحمد لله، تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]. لا يشغله سمع عن سمع ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا تغلطه كثرة المسائل.

هـ - البصير:

ورد هذا الاسم في القرآن اثنين وأربعين مرة، منها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٣].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٥].
﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤].
قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو البصير يرى دبيب النملة السوداء
تحت الصخر والصوان
ويرى مجارى القوت في أعضائها
ويرى عروق بياضها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها
ويرى كذلك تقلب الأجفان

وقال السعدي: «البصير: الذي يبصر كل شيء وإن رق وصغر فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأراضين السبع كما يبصر ما فوق السموات السبع، وأيضًا بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة». اهـ.

ونختم بهذا الكلام النفيس للإمام ابن القيم لهذا الباب من كلام أطباء القلوب في مراقبة الله تبارك وتعالى والحياء منه فلو تركنا العنان في سرد مآثر الأولين وأقوالهم لطال بنا المقام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر

إليه أورثه هذا العلم حياءً منه سبحانه، فيجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة ذلك كمثل العبد إذا عمل الشغل بين يدي سيده فإنه يكون نشيطًا فيه محتملًا لأعبائه ولاسيما مع الإحسان مع سيده فإن الله ﷻ لا يغيب نظره عن عبده فإذا ما غاب نظر العبد عن كون المولى ناظرًا إليه تولد من ذلك قلة الحياء والوقاحة والاستقباح للجناية -الذنب- الناشئ عن الحياء درجتان أخريان:

دنيا: وهي الاستقباح الحاصل عن ملاحظة الوعيد.

عليا: وهي الاستقباح الحاصل عن المحبة.

ومن الحياء ما يتولد من تحقق القلب بالمحبة الخاصة مع الله ﷻ». اهـ. كلامه في «مدارج السالكين».

أستغفـر الله مما يعلم الله ... إن الشقي لمن لا يرحم الله

ما أحلم الله عمن لا يراقبه ... كل ما مسيء ولكن يحلم الله

فاستغفر الله مما كان من زلل ... طوبى لمن كف عما يكـره الله

طوبى لمن حسنت سريرته ... طوبى لمن ينتهي عما نهى الله

نسأل الله أن يغفر لنا ما قدمنا وأخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير.

* * *

ريح المسك
مواقف في مراقبة الملك تبارك وتعالى

* فأين اللـــــــــه ؟

عن عبد الله بن دينار قال: «خرجت مع ابن عمر إلى مكة فعرسنا فانحدر علينا راع من جبل، فقال له ابن عمر أراع؟ قال: نعم، قال: أعطنا شاة، قال: إني مملوك، قال: قل لسيدك: أكلها الذئب -مختبرًا-. قال: فأين الله عز وجل؟ قال ابن عمر: فأين الله!! ثم بكى، ثم اشتراه بعد، فأعتقه، قال له: كلمة أعتقك في الدنيا أرجو أن تعتقك في الآخرة».

واسوءتاه!! كيف ينظر إلي بعد اليوم؟

وقال أبو الفتح بن مخرق: «تعلق رجل بامرأة من بنات الشام فعرض لها وبيده سكين، لا يدنو منه أحد إلا عقره، وكان الرجل شديد البدن فبينما الناس كذلك والمرأة تصيح من يده إذ مر بشر بن الحارث الحافي، فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل فوقع الرجل إلى الأرض ومضى بشر فدنوا من الرجل وهو

يرشح عرقًا كثير ومضت المرأة بحالها فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدرى ولكني حاكني شيخ، وقال: إن الله ناظر إليك وإلى ما تعمل؟ وضعفت لقوله قدماي، وهبته هيبة شديدة لا أدري من ذاك الرجل؟ فقالوا له: ذاك بشر بن الحارث. فقال: وا سوءتاه كيف ينظر إلى بعد اليوم؟ وحمى الرجل من يومه ومات اليوم السابع» اهـ.

اذكر أن الله ينظر إليك وأنت تعصي فإياك وأن تسقط من عينه تبارك وتعالى، واستحي منه وقل: وا سوءتاه منك! كيف تنظر إليّ بعد اليوم يا أرحم الراحمين؟

إن كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا:

عن عبد الله بن زبير بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال: «بينما أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يعسُّ -يتقصى الليل عن أهل الريبة- بالمدينة إذ أعيا فاتكأ على جانب جدران فى جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه -امزجيه- بالماء. فقالت لها: يا أماه! أوما علمت ما كان من أمير المؤمنين؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديًا فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء. قالت: يا

بنتِ قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك فيه عمر ولا منادى عمر، فقالت الصبية لأمها: يا أماه! والله! ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء إن كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا، فزوجها عمر رضي الله عنه ابنه عاصم وأنجبت بنتًا اسمها ليلى وأنجبت البنت عمر بن عبد العزيز رحمه الله».

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، فكان الجزاء من جنس العمل.

وانظر أخي.. إلى تلك النماذج في مراقبة رب الأرض والسموات في الطاعات والقربات:

قال أبو حمزة الثمالي: «كان على بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به» ويقول: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل».

وكان ابن سيرين يضحك بالنهار، فإذا جن الليل فكأنه قتل أهل القرية من البكاء من خشية الله.

وكان أبو وائل إذا صلى نشج نشيجًا -بكاءً شديدًا- ولو جعلت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فعله.

وقال حصاد بن زيد: «كان أبو أيوب السختيانى إذا حدث بالحديث فيرق فيلتفت فيتمخط ويقول: ما أشد الزكام -يظهر أنه مزكوم- لإخفاء البكاء، رجاء أن يكون ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

❊ ❊ ❊

ثمرات المراقبة

١- تثمر السعادة والانشراح وقرة العين:

لا شك أن المراقبة تحتاج إلى حضور القلب بين يدي الله ﷻ وعدم الانشغال عنه سواء في العبادة أو خارجها، وإلى امتلاء القلب بعظمة الله ﷷ ومحبته وهذا القرب والدنو من الله تعالى يبث في القلب سرورًا عظيمًا.

قال ابن القيم ﵀: «فإن سرور القلب بالله وفرحه به وقرة العين به، لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا البتة وليس له نظر يقاس به وهو حال من أحوال أهل الجنة، حتى قال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

٢- المراقبة طريق الثبات:

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله ﷷ وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئًا منه فليتهم إيمانه وأعماله فإن للإيمان حلاوة من لم يذقها فليرجع وليقتبس نورا يجد به حلاوة الإيمان.

فقد ذكر النبى ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته، فذكر

الذوق والوجد وعلقه بالإيمان فقال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًا ورسولًا»[١].

وقال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[٢].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قد الله روحه.. يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوةً في قلبك وانشراحًا فاتهمه فإن الرب شكور. يعني أنه لابد أن يجزى العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين، بحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.

والقصد أن السرور بالله وقربه وقرة العين به تبعث على الازدياد من طاعته وتحث على الجد في السير...»[٣]. اهـ.

إلى من يشكو الفتن.. إلى من يشكو الفتور.. إلى من يبتغى الثبات فى زمن المتغيرات عليك بالمراقبة.

---

(١) رواه العباس بن عبد المطلب وأخرجه مسلم في «صحيحه».
(٢) رواه أنس بن مالك، وأخرجه البخاري، ومسلم في «صحيحيهما».
(٣) من «مدارج السالكين».

٣- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان :

فهؤلاء المحسنون أخلصوا العمل لله، وراقبوه مراقبة من ينظر إلى ربه لكمال علمهم بأن الله ينظر إليهم ويرى حالهم، ويسمع مقالهم ، فطرحوا النفوس بين يديه وأقبلوا بكليتهم عليه والتجأوا منه إليه، عاذوا به منه، وأحبوه من كل قلوبهم، فامتلأت بنور معرفته فلم تتسع لغيره فبه يبصرون، وبه يسمعون، وبه يبطشون، وبه يمشون، وبرؤيتهم يُذكر الله تعالى.. وبذكره يُذكرون.

ذكروا الله تعالى فذكرهم، وشكروه فشكرهم وتولوه ووالوا فيه فتولاهم، عادوا أعداءه لأجله فآذن بالحرب من عاداهم، وأحسنوا عبادة ربهم فأحسن جزاءهم وأجزله ، عبدوه على قدر معرفتهم به فجازاهم بفضله.

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الرعد:١٨]، وزادهم ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦].

والحسنى التي وعد الله تعالى المحسنين هي الجنة، وأما الزيادة فهي النظر إلى وجه الله عز وجل.. كما رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟**

أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ؛ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

فلما كانوا يعبدون الله عز وجل في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنهم يرونه بقلوبهم وينظرون إليه في حال عبادتهم إياه كان جزاؤهم على ذلك النظر إلى وجه الله عز وجل في الآخرة عيانًا بأبصارهم.

وعكس هذا ما أخبر به عن المكذبين الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فقال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، فلما كان حالهم في الدنيا التعذيب وأعقب ذلك التعذيب تراكم الران على قلوبهم حتى حجبت عن معرفته ومراقبته في الدنيا، فكان جزاؤهم على ذلك أن حجبوا عن رؤيته في الآخرة، وذلك قول الله عز وجل: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١].

كيف تحسن في عبادتك و تراقب ربك؟

قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقِهِ»[1].

(١) رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وإسناده حسن، حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة».

محاسبة النفس على الأقوال والأعمال والإمساك على كل ما لا يرضى الله من أفعال وأقوال[١].

إدمان مطالعة فضائل المراقبة والآيات والأحاديث والقصص في ذلك.

تقوية الإيمان والعقيدة لأن الإحسان أعلى درجات الدين ولا يرتقي إليه إلا بالمجاهدة في الارتقاء في العلم والعمل أي: الإسلام والإيمان.

التأمل في أسماء الله الحسنى التي تستوجب المراقبة[٢].

المواظبة على العبادات المفروضة والمندوبة في الصلاة وقد قيل لرسول الله ﷺ: إن فلان يصلى الليل كله فإذا أصبح سرق! فقال رسول الله ﷺ: «سينهاه ما تقول» أو قال: «ستمنعه صلاتـه»[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥] والصيام وصدقة السر والزكاة.

---

(١) «محاسبة النفس» للشيخ محمد حسين يعقوب.

(٢) عليك بكتاب «النهج الأسمى شرح أسماء الله الحسنى» لمحمد الحمود النجدي.

(٣) صحح إسناده الألباني في «مشكاة المصابيح».

الصدق في القول والفعل والعزيمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»(١).

الصبر والاصطبار والتكلف حتى تصبح المراقبة خلقًا.

مجالسة الصالحين والتقاط أطايب كلامهم كما يلتقط الثمر. وهو من أهم الوسائل لأن الرفقة الصالحة تقوى القلب على السير وقد أُمر بها نبينا ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وإبراهيم عليه السلام قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء:٨٣]، وهي من نعيم أهل الجنة، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ

(١) رواه مسلم.

وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩].

مطالعة أحوال الصالحين المراقبين لله تعالى.

اعتزال البيئة الفاسدة والأجهزة المفسدة وبخاصة أجهزة الفساد السمعية منها والبصرية التي تنسف الحياء والمراقبة نسفًا وتدمره تدميرًا، وقد كتب بعضهم شعرًا على لسان البث المباشر فقال:

هل تعلمون من أنا	أنا مصدر الخنا
أنا الذي يصور	الخبث بصورة السنا (ضوء)
أنا الذي بداركم	يشرح أسرار الزنا
أنا عدو للبقاء	أنا صديق للفنا
أنا عدو داركم	أنا مقوض البنا
أمنيتي سامية	تفوق في الدنيا المنى
أمنيتي تحطيم كل	خير يملأ الدنا

١١- دوام التوبة والاستغفار والاستئناس بالله تبارك وتعالى وبذكره، قال تبارك وتعالى في حديثه القدسي: «**أنا جليس من ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[١].

(١) رواه البخاري بلفظٍ قريب.

الخاتمة
نسأل الله حسنها

ولن تصح منك عبودية ما دام لغيره فيك بقية.

سيظل الحديث عن أسماء الله وصفاته حديث تتفتح له القلوب وتستنير به البصائر وتسعد به الروح ولا تشبع القلوب الطاهرة من ذكر الله ولا تشبع من التنعم بكلامه..

فإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية وكما قال أيضًا: «المأسور من أسره هواه والمحبوس من حُبِسَ قلبه عن الله».

فإذا تخلص القلب من قيوده وهو الشبهات والشهوات حلق بجناحي الخوف والرجاء في فضاء التوحيد منطلقا إلى الله واستكمل معالم القلب السليم الذي أعلى أوصافه الحب لله تبارك وتعالى كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولن تصح منك عبودية ما دام لغيره فيك بقية»، فتصلح تصورات القلب وإراداته، وأحواله ومقاماته، وعقائده وعباداته، ويصلح الباطن والظاهر، والسر والعلن، فيصبح العبد كله لله حقيقة وصورة..

ما أحوجنا إلى ذلك الرجل الذي أحاط هذا الدين من كل جوانبه واكتملت فيه معالم الشخصية المسلمة.

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب:٢٣].

هذه المعالم هي جنبات اللبنة الصالحة التي توضع في بناء شامخ ألا هو بناء «ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»[1]. من إيمان صادق وإحسان في العبادة وأمانة في معاملة وروحانية وربانية فى أعمال القلوب وبصيرة في الدعوة إلى الله.

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

هذه السطور وهذه الكلمات التي قرأناها ما هي إلا إشارة لطيفة -على ما تستحق المسألة من تفصيل وعمق- إلى ذلك المعنى الرائق معنى الإحسان والمراقبة في معاملة الرحمن في زمن جفت فيه منابع الروح وطغت فيه المادية حتى دائمًا نتذكر معًا أن الحياة لا تكون إلا في رحاب حبه والتطلع إلى لقائه تبارك وتعالى في الآخرة فإن الدنيا كلها لا تصلح أن تقارن بمعنى واحد من معاني الآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ

(١) عن النعمان بن بشير، وحسنه الألباني فى «مشكاة المصابيح».

بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»[١].

نحتاج أن نتذكر تلك المعاني الربانية في طريقنا ومسيرتنا في الدعوة إلى الله ونصرة كتابه تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ، وألا ننجرف مع التيار الذي يبث من قبل شياطين الإنس والجن من مبادئ وقيم مادية وبعيدة تمام البعد عن غذاء الروح ومعدن النور كتاب الله تبارك وتعالى. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

ينبغي علينا كلما ازدادت أمواج الفتن علوًا وظلامًا كلما ازددنا إقبالًا على كلام ربنا وعلى عبوديته وأن نواجه كل ذلك الصد والمكر بنور القرآن الذي يبدد الظلام والحق الذي فيه الذي لا يحتمله الباطل فيزهق.

(١) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، ورواه الترمذي، وهو صحيح غريب من هذا الوجه.

﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ [الإسراء:٨١].

وأخيرًا؛ أسأل الله أن ينفعني بتلك الكلمات وأن ينفع بها ناشرها وقارئها وكل من سعى في نشرها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين....

* * *

المراجع

١- القرآن الكريم.
٢- «صحيح البخاري».
٣- «صحيح مسلم».
٤- «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني.
٥- «فقه الحياء» للدكتور محمد إسماعيل المقدم.
٦- «مدارج السالكين» لابن القيم.
٧- «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني.
٨- «أضواء البيان» للشنقيطي.
٩- «في ظلال القرآن» لسيد قطب.
١٠- «تفسير القرطبي».
١١- «تفسير الطبري».
١٢- «تفسير السعدي».
١٣- «الفوائد» لابن القيم.
١٤- «ذم الهوى» لابن الجوزي.
١٥- «صيد الخاطر» لابن الجوزي.
١٦- «الزهد» للإمام أحمد بن حنبل.
١٧- «كتاب التوابين» لابن قدامة المقدسي.

١٨- «نزهة الفضلاء وروضة العقلاء» لابن حبان الليثي.

١٩- «شُعب الإيمان» للبيهقي.

٢٠- «النهج الأسمى شرح أسماء الله الحسنى» لمحمد النجدي.

٢١- «صلاح الأمة في علو الهمة» للدكتور سيد حسين العفاني.

٢٢- «ترطيب الأفواه بذكر من يظهر لهم الله» للعفاني.

٢٣- «طب القلوب» لابن القيم.

٢٤- «النونية» لابن القيم.

٢٥- «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين.

٢٦- «ذم الهوىٰ» لابن الجوزي.

الفهرس

❊ ❊ ❊